الباب السادس

بين الشرق والغرب

obeikandl.com

obeikandl.com

بين الشرق والغرب

حاول موسوليني أثناء رحلته فى ليبيا عام ١٩٣٣ أن يكسب الاسلام الى جانبه ، فأعلن فى تصريحاته العامة ــ التى تشبه ما أعلنه القيصر « فيلهيلم الثانى Wilhelm II » فى عام ١٨٩٨م ــ بأنه صديق الاسلام والمدافع عنه • وفى نفس الوقت ألقيت خطبة فى لندن يطابق أسلوبها هذه النغمة ، اذ اشتملت على تودد للاسلام ، وركزت بصفة خاصة على ضرورة انشاء صداقة مع الشعوب الاسلامية •

كان الخطيب هو المندوب السامى البريطانى السابق فى مصر « لوردلويد Lord Lloyd » وتحدث فى خطبته ــ التى ألقاها فى أحد مساجد لندن ــ عن وضع الاسلام بين القوى العالمية ، وأهمية عودة القوة اليه مرة أخرى • لم يهتم الرأى العام الأوروبى بهذه الخطبة ، ولكن كان لها صدى كبير فى الصحافة الاسلامية ، فعلق عليها المراقبون السياسيون ، ونشر حولها كثير من الملاحظات والاستنتاجات ، وظلت مدة طويلة مادة صحفية لوسائل الاعلام على مختلف أنواعها وألوانها ، اذ فجرت هنا ــ فى ساحة الرأى العام الاسلامى ــ موجة من المجادلات والمناقشات ، أمدت فكر المسلمين بمعلومات غزيرة ، وزودته بمادة ثقافية تهيئه للدفاع عن القومية الاسلامية ، ولكنها كانت أيضا اشارة الى الخسارة المادية التى تكبدتها البلاد الغربية عموما فى الشرق الاسلامى ، وكان مما قاله « لورد لويد Lord Lloyd » فى هذه الخطبة :

« أعتقد أن الامبراطورية البريطانية لا يمكنها البقاء دون رحمة كاملة من المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، فالاسلام ــ على ما أعتقد ــ بامكاناته الروحية والفكرية هو احدى القوى الجوهرية فى العالم وسوف أعمل دائما كل ما أستطيعه لتوجيه انجلترا الى انشاء علاقات ود وصداقة مع الاسلام فى كل مكان فى العالم •••• » •

وقعت قبل أعوام قليلة خلافات حادة بين « لورد لويد Lord Lloyd » وبين الوطنيين المصريين أثناء توليه منصب المندوب السامى البريطانى فى مصر ، مما أجبر لندن على استدعائه وتعيين آخر مكانه ، فاذا وازنا بين هذا الموقف وبين ما قاله فى هذه الخطبة نرى تغايرا كاملا وتباينا واضحا ، وتعتبر هذه التصريحات التى تحدث بها فى أحد مساجد لندن مفاجأة لم يتوقعها المراقبون السياسيون ، ويقوى عنصر المفاجأة فيها ، اذا تذكر المرء أن « لورد لويد Lord Lloyd » أحد الأعضاء المتشددين فى الجناح اليمينى لحزب المحافظين .

نشرت الصحف الاسلامية — وخاصة تلك التى تصدر فى البلاد التى تخضع لنفوذ انجلترا السياسى أو التى كانت تخضع له من قبل — خطبة « لورد لويد Lord Lloyd » فى أماكن بارزة ، وأشارت فى تعليقاتها الى مدى الاستعداد للصداقة والعمل المشترك ، والى مدى التجاوب مع روح هذا الاعتراف ، الذى عبرت عنه كلمات انجليزى عريق فى الاتجاه اليمينى ، ولكن فيما عدا ذلك كان رد الفعل فى الصحافة الاسلامية على هذا النداء مخالفا تمام المخالفة لما كان يتوقعه المراقبون ، فهو تفكير مغاير لخطبة السياسى الانجليزى الذى عرف الشرق الاسلامى معرفة جيدة ، لأنه أقام فى ربوعه سنين طويلة ، اتسم رد الفعل بالشك والبرود — عدم التحمس لما جاء فى الخطبة — والحذر ومحاولة البحث عن الأسباب التى دفعه «لورد لويد Lord Lloyd » وكثير غيره من الانجليز والأوروبيين الى تغيير موقفهم تجاه الاسلام ، ففى تعليق احدى الصحف المصرية الكبرى نقرأ ما يلى :

« هل يمكن أن يتذكر انجليزى — أو أوروبى عموما — أهمية الاسلام وقوته اذا لم يحس بالأخطار التى تهدده من الشرق الأقصى ؟

ألم يزعج الغرب نشاط اليابان واهتمامها بالاسلام فى كل أرجاء العالم ، غير أن هذا ليس كافيا وحده فى تغيير موقف الغرب تجاه

العالم الاسلامى ، اذ يضاف اليه ما هو أهم وأقوى أثرا فى تحويل نظرة الأوروبيين الينا ، ألا وهو : عودة الروح الى قوتنا الذاتية ، وتذكر ماضى الاسلام المشرق • ليس الاعتراف — من الناحية الجوهرية — بأهمية الاسلام ، والتسليم بأنه قوة عالمية شيئا جديدا ، فقد دلت عليه تحركات القوى السياسية الذاتية ، ونشاطها الذى لا يهدأ لتفتيت وحدة الاسلام ، وأفصحت عنه محاولات القوى الاستعمارية للسيطرة على منطقته وفرض نفوذها على شعوبه • ألم يكن هذا الاعتراف — ضمنيا بقوة الاسلام وأهميته — يفوق مثل هذه التصريحات ؟ فعندما كان الاسلام ضعيفا لم يعرفه أحد الا عن طريق فرض السيطرة عليه والتحكم فى أوطانه ، واليوم يخطب الجميع وده ، ويتحدثون عن توطيد علاقات الصداقة معه ، لأنه بدأ يستعيد قوته بالاعتماد على نفسه ، واتخاذ ماضيه التاريخى منارا يهديه الى طريق ابراز قوته الكامنة فيه • ولكن يجب أن تكون هذه الصداقة — ان كانوا صادقى النية فيما يصرحون به — صورة أخرى غير ما يتصوره الغربيون ، فالصداقة التى يتحدث عنها « لوردلويد Lord Lloyd » وكثير غيره من الرجال الأوروبيين الأذكياء لا تخرج عن أن تكون علاقة بين السيد والخادم ، أو بين القوى والضعيف ، اذ قصد بها — على الرغم من التصريحات المعسولة والخطب الرنانة المشتملة على كثير من كلمات الود والمحبة — خضوع أحد الجانبين للآخر ، ولن يقبل الاسلام صداقة بهذا المعنى فى أى مكان يقف عليه مسلمون ، اللهم الا اذا تسرب الضعف الى ركائز قوته وتوقفت نهضته ، وتلاشى مجده وعظمته • ان من الأخطاء الجسيمة أن يعتقد الغرب أن الشرق الاسلامى راض بوضعه الحالى ، لأن جزءا كبيرا من الشعوب الاسلامية ، ولأن ملايين من المسلمين لا زالوا يحنون الرؤوس أمام تفوق قوى الغرب المادية ، فهذا الانحناء مؤقت وسوف يستمر حتى اللحظة التى يصبح فيها المسلمون قادرين على هز الاستعمار الأجنبى هزا عنيفا يفقده صوابه ولا يملك سوى الرحيل عن المنطقة الاسلامية ، وستأتى هذه اللحظة لا محالة ، فهى تقترب بمعدل انتاج الأسلحة الذرية

فى أوروبا وضياع وحدتها الفكرية • اذ يكمن محرك مستقبل الشرق فى تفكك الفكر الغربى وانصداع وحدته الروحية •

فاذا تكلم الغرب اليوم — لأنه يحس بضعف داخلى — عن الصداقة ، فيجب أن يقبل صيغة أخرى مخالفة لما يتخيله العقل الاستعمارى ، وأن يقدم أدلة مقبولة — قبل أن ينتظر موافقة الاسلام — تشير الى طى سجل سطر فيه — على مدى قرون قادمة — الكثير عن السلام والعمل المشترك » •

يبين هذا التعليق — وهناك تعليقات كثير تشبهه صرفنا النظر عنها حتى لا يتكرر المعنى — الطابع الخاص لتفكير المسلم وثقافته وحكمه على وضع أوروبا وأحداثها ، فهو يظهر أنه غير مسالم ، بل مشاغب ، يتأهب للوثوب والنضال على الرغم من أنه يوجد اليوم فى عصبة الأمم مجموعة اسلامية كبرى بجانب القوى الغربية ويقال انها متساوية فى الحقوق مع الدول الغربية ، اذ يجلس الجميع على مائدة واحدة للتشاور فى خطط العمل المشترك • كذلك يبين هذا التعليق — يشاركه فى ذلك آلاف غيره من التعبيرات التى شاعت اليوم فى العالم الاسلامى — أن الشعور بالنقص الذى شاع بين المسلمين نتيجة الهزيمة السياسية والعسكرية قد اختفى ، وحل مكانه تصميم وارادة على بناء المستقبل دون التفريط بشىء للمستعمر ، بل كفاح ضد أطماعه ومخططاته الاستعمارية ، حتى يسلم بحقوق الشعوب الاسلامية دون قيد أو شرط •

أى قوى وجدانية بعثت هذه الارادة اليوم فى الشرق ؟

بعثها الشعور بأن الوحدة الفكرية للاسلام ووجود الاحساس الحى للدين الاسلامى ، ينتصر فى كل مكان حيث ينزل الاسلام الميدان مع العقل الغربى المسيحى فى معركة فكرية روحية خالصة ليس للتقدم المادى التكنولوجى مكان فيها • ولا يكون هذا المعنى واضحا فى أى مكان وضوحه فى وسط افريقيا ، فى ساحة النضال حيث تحيط القوى التبشيرية للغرب المسيحى والقوى الروحية المنبعثة من الشرق الاسلامى

بروح الانســـان الافريقى : فبينما كان الغرب فى القرون الماضية يحرز انتصارات سياسية فى كل مكان فى وسط افريقيا ؛ امتد ـــ ومازال يمتد ـــ الزحف الروحى الاسلامى الذى لا يمكن لأحد أن يوقفه ، وانتصر على المسيحية ، فحيثما حل الاسلام ضاعت جهود المبشرين المسيحيين وفقدوا الأمل فى تحويل روح وثنية الى المسيحية ، فالاسلام فى تماسكه وبساطته متفوق على المسيحية المبددة جهودها فى نزاعات عقائدية وخلافات مذهبية تزداد تعقيداً يوماً بعـــد يوم فيتعسر فهمها ، وليس فى الامكان حل طلاسمها • ولا يغزو الاسلام هـــذه المناطق عن طريق دخول الناس فيه فرادى ، بل يحاول غزو القبيلة كلها كوحدة وطنية ، لأنه لا يوجد دين آخر غير الاسلام يربط الحياة السياسية والدينية ببعضها ؛ ويوحد بين الطبيعة الروحية والدنيوية فى الفرد • وسوف يؤثر التفوق الاسلامى ـــ الذى ينبىء البعثات التبشيرية المسيحية ذات الخبرات الواسعة فى المجال بأنه سيغزو افريقيا كلها عن طريق التبشير الذى يقوم به عامة المسلمين ـــ فى المجالات السياسية ، اذا وصلت قضية التحرر الوطنى والاجتماعى فى المستعمرات الخاضعة للرقابة الأوروبية الى مرحلة تهديد الوضع السياسى ـــ ومن المؤكد وصولها ان عاجلا أو آجلا ـــ للقوى الاستعمارية ، على الرغم من الأسلحة الحربية الموجودة اليوم لدى الأوروبيين •

كذلك يبدو واضحا فى الوقت الحاضر أن التطور الغربى تجمد ، فلم يتحرك منذ العصر الذى طويت فيه صفحة « الغرب المسيحى » نحو تجميع نفسه ومواجهة الخطر الذى يهدده من الشرق الاسلامى ، فقد تعاقبت على أوروبا ـــ قبل ضياع وحدتها المسيحية ، أشكال للوحدة ، وصور لتجميع جهود الدفاع عن القارة ـــ ســـجل لها التاريخ جوانب ايجابية فى صراعها مع القوى المحيطة بهـــا ، اذ على أساسها ظهرت « أوروبا » كوحدة فى ميدان الصراع العالمى •

فبعد انهيار العصر القديم أصبحت المسيحية المبدأ الأساسى الذى تشع منه قوى التفاهم والتجمع السياسى ، فظهرت أوروبا فى الصراع التاريخى تحت اسم « الغرب المسيحى » فتلاشت الخلافات جزئياً ،

وهدأ الصراع الداخلى ، وتجمعت المصالح المتشابكة فى اطار موحد ، وخضعت لتوجيه الأحداث المسيحية المشتركة — وهو ما يجرى الآن فى المنطقة الاسلامية ، اذ يقصى الاسلام على النزعات الفردية للدول الاسلامية ، ويوجه كل الاتجاهات والقوى الى ميدان العمل المشترك — نزل الغرب المسيحى ميدان الصراع منافسا للشرق الاسلامى ، ولازال الصراع الذى سوف تشكل نتائجه الوجه السياسى للكرة الأرضية مستمراً حتى اليوم .

وجد الغرب المسيحى أكثر أساليبه حيوية فى عصور المملكة[١] ، وضعفت هذه الحيوية — بل ماتت — عندما هيأ التجديد الذى طرأ على مقومات حضارة القارة للمجتمع الأوروبى قوة فكرية أخرى : فقد تحررت المملكة — وهى شعار الغرب المسيحى — من وثاقها المسيحى الميتافيزيقى ولكنها — رغم ضعفها وهزالها — بدت صورة للوحدة الأوروبية ولتماسك البلاد الغربية وتساندها ، ثم تحولت مجموعات الشعوب الغربية الى مجتمع واحد فى القرن[٢] الذى نضجت فيه الأفكار الانسانية ولكن الثورة الفرنسية هزت هذه الوحدة هزاً عنيفاً ، وقادت الى الانشقاق الأوروبى ، ودفعت دول أوروبا الى التسابق فى التسلح والمنافسة فى ميدان العلوم الطبيعية والكيماوية ، فأصبحت القومية مبدأ سياسياً فتت وحدة أوروبا الداخلية فى القرن التاسع عشر ، وأشعل نار العداوة بين دولها حتى غرقت أخيراً — فى قرننا الحالى — فى بحر من دماء الحرب العالمية .

---

(١) نشأت فكرة المملكة المسيحية منذ اغسطس وكان من اهدافها اقامة وحدة تتجاوز حدود الدولة السياسية ؛ بين كل شعوب المسيحية ؛ يقوم على راسها قيصر هو ظل الله فى الأرض ، تعددت صور هذه المملكة : المملكة الرومانية القديمة التى انقسمت فى عام ٣٩٥ م الى الرومانية الغربية والرومانية الشرقية (عرفت باسم البيزنطية) ثم الامبراطورية الالمانية(٨٠٠م) (م . ش) .

(٢) كان العصر الذهبى للدراسات الانسانية القديمة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . (م . ش) .

هزت مأساة الحرب العالميـــة أوروبا من الأعماق ، فأدرك الأوروبيون مدى الخسارة المـــادية التى تكبدتها الدول الغربية بسبب هـــذه الحرب فى الشرق الاســـلامى ... ثم ماذا ؟ .. ألا يحاول الأوروبيون اعادة تكوين الجبهة الأوروبية من جديد ، بحيث تكون قادرة على بعث حياة أخرى تتحكم فى توجيه مجرى التاريخ ؟ .. ألا تبذل الجهود لتعويض أوروبا عما فقدته ، كى تحتل مكانها مرة أخرى كقوة فكرية وسلطة سياسية تسيطر على زمام الأمور فى مجال توجيه النزاع السياسى العالمى بين الشرق والغرب ، ويستوى فى تحقيق هـــذا الهدف جميع الشعوب حول معبود واحد وهو ما يسمى « اتحاد الشعوب » ، أو تنفيذ فكرة « الوحدة الأوروبية Pan Europa » التى لم تزل بعد أفكاراً معلقة فوق الذرات المتطايرة من قلاع المصالح الأوروبية ؟

قضت الحرب العالمية على الأفكار الانســـانية ودفنتها فى ســـاحة القتال ، فلا يوجد اليوم مبدأ يجمع الدول الغربية على طريق العمـــل المشترك والتعاون لحماية مصالحها فى افريقيا وآسيا ـــ حتى من الناحية الدينية ـــ اذا نظرنا من جانبها الى ما يمكن الاستفادة منه لتجميع أوروبا ، اذ لم يعد للوحدة المسيحية بين الدول الغربية وجود ، فالوثنى الملون الذى يعيش فى قلب افريقيا أقرب الى الفرنسى من الألمـــانى المسيحى الذى يقيم على الناحية الأخرى من نهر الراين ، وهكذا قضت أنانية الدولة قضاء تاماً على الوحدة المسيحية التى جمعت الشـــعوب الأوروبية فى المـــاضى تحت لواء واحد ، فاذا شهدت أوروبا فى القرن التاسع عشر آثار هـــذه الوحدة متمثلة فى تكوين « بعثة تبشيرية أوروبية واحدة » تغلغلت فى الأجزاء الأخرى من العالم ـــ وخاصة فى بلاد الشرق ـــ لتنشر ثقافة الغرب وحضارته ، فقد تلاشت أيضاً هـــذه الآثار ، اذ لم تعد شعوب ما وراء البحار فى حاجة الى هـــذه الثقافة ، لأنها تقدمت فى الصناعة الى درجة تجعلها تستغنى عما كانت تقدمه لها أوروبا من خبرات فنية ، ولم يبق لأوروبا اليوم من عوامل ارتباطها بهذا العالم الآخر ـــ أو من القوى التى كانت تدفعها الى التشييد والبناء ـــ سوى الخوف .

ـ الخوف من الشعوب الآسيوية التى تهدد ـ بمساعدة موسكو ـ النظام الأوروبى •

ـ والخوف من الشعوب الافريقية ونموها البشرى نمواً مطرداً ألقى الرعب فى قلوب المراقبين السياسيين ، اذ بدت معالم خطر فى وجود كثير من الافريقيين فى فرنسا ، ومعنى هـذا أنهم وضعوا أقدامهم على أرض أوروبية •

ولكن لن يستطيع هـدا الخوف أن يعيد الحيـاة الى الوحـدة الأوروبية ، الا اذا أصبح مدلول كلمة أوروبا وحـدة جغرافية ، وذكر مدلول كلمة البلاد الغربية الأوروبية بتاريخها الفكرى المشترك ، وما يجرى اليوم من محاولات لملء أوعية الفكر الفارغة بالمصالح المادية المشتركة ، أثبتت الأيام فشلها ، فطالما يقف من يملك ضد من لا يملك ، وقفة تعنت ولا يقبل تسـوية تضمن مصالح الطرفين ، وعليه فلن توجد الوحـدة الفكرية للمعسكر الغربى ، وطالمـا تتصارع القوى الثورية مع السلطة الحاكمة فلن تتحقق الوحدة السياسية لأوروبا •

وهكذا يرى المسلمون اليوم حالة تفكك الأوروبيين أعداءهم بالأمس، فتستيقظ أمام هـذه الصورة الثقة بالنفس ، وتزداد مطامعهم ، وينسج خيالهم آمالا عريضة ، ويندفعون الى تحقيقها . فينمو لديهم حب المغامرة واشعال نار النضال والكفاح ضد أوروبا • وبينما تزداد صورة البلاد تمزقا ، يقترب الشرق من الوحدة التى ينادى بها المسلمون ، فيتفادى السقوط فى هوة الصراع السياسى التى سقطت فيها أوروبا اليوم ، وسيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق ، عوداً على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة العالميـة الاسلامية فى الصدر الأول للاسلام ، وستظهر هـذه القوة التى تكمن فى تماسك الاسلام ووحدته العسكرية ، وستثبت هـذه القوة وجودها ، اذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها ، وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لا تتوافر فى غيرها من تيـارات القوى العالميـة • أدرك المفـكر الانجليزى « هيلير بيلوك Hilere Belloc » مدى فاعلية هـذه القوة ـ معارضا

بذلك كثيرا من الأحكام السطحية عليها — حين كتب : « لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الاسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون أيضا خطراً على أعدائه • من الممكن أن يعارض المرء هـذا الرأى بأن الاسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث • لا أستطيع أن أدرك ، لمـاذا لم يعوض الشرق الاسلامى ما فاته فى هذا الميدان ••• ؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة الى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الالمـام بها ، والتفوق فيهـا الى الخبرة وتوجيه الخبراء • ومن الأمور المؤكدة أنه غالباً ما يحدث أن تكون حضارة أخرى وذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى ، أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال ما بلغته الأولى ، اذن فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب ظهر حتى الآن ، أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة ، فى المستقبل سـيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسـه ومشاعره — فلم ينقذه أحد — وتحكمت فى سـلوكه النظريات ، التى تسلب الانسان الاحساس بالطبيعة • لمـاذا لا يتعلم العالم الاسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ وفى مقابل هـذا سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية — وهو من العوامل الأساسية لوحـدة أوروبية — التى فقدتها المسـيحية ، بينما لم يزل الاسلام يحافظ عليها ••• » •

يبدو أن ما أشار اليه « هيلير Hilare » من أن الاسلام سوف يعوض ما فاته فى مجال العلوم الهندسية وشيك الوقوع ، فقد استقلت دول فى العالم الاسلامى واعتمدت على نفسها فى بناء هيكلها السياسى وتأسيس نهضتها العلمية • وهكذا أصبح تكوين الدول فى منطقة وحدة مصير العالم الاسلامى ذا أهمية مضاعفة ، اذا انضمت هذه الدول — التى قامت فى الشرق على أسس قومية — الى جبهة القوى التى تثور على الرجل الأبيض ، وتكافح ضده فى أجزاء الأرض الثلاثة • صارت

هـــذه القوة ومركزها الاستراتيجى من الأمور المسلم ــ والمعترف ــ بهـــا فى هـــذه الجبهة ، على الرغم من أن الأساطيل القوية والأعداد الهائلة من القنابل والأســـلحة الفتاكة لازالت تضـــمن للغرب تفوقه الاستراتيجى •

ان انتفاضة العالم الاسلامى صوت نذير لأوروبا ، وهتاف يجوب آفاقها يدعو الى التجمع والتساند الأوروبى لمواجهة هـــذا العملاق الذى بدأ يصحو وينفض النوم عن عينيه •

هل يسمعه أحـــد ؟

ألا من مجيب ؟

* * *

obeikandl.com